قراءة فى علم اجتماع المدرسة

دكتور / سعيد اسماعيل على

فى صيف عام ١٩٨١ ، كنت أجلس مع مجموعة من المبعوثين والمهاجرين من عدد من الدول العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، أشهد اجتماعاً لهم بعد عصر يوم جمعة ، فى المعهد التكنولوجى العالمى الشهير .M.I.T ببوسطن - وياللعجب - يتذاكرون فيه موضوعات دينية فى الغالب والأعم ، فكان أن سمعت أحدهم يتحدث طويلا عن عدد من الرذائل وعدد آخر من الفضائل الأخلاقية محذراً من الأولى ، مبشرا بالثانية .

وعندما انتهى صاحبنا من حديثه طلبت تعقيباً ، كانت خلاصته أن مثل هذه الرذائل ، وتلك الفضائل ، لا ينبغى أن يتم التعامل معها - تحذيرا وتبشيرا - فقط بمجرد الوعظ والارشاد ، فهى افراز لبنية مجتمعية هى التى تحدد لها شكلها ومسارها ، ومن ثم فان العمل الأخلاقى لابد وأن يرتبط بالدرجة الأولى بالعمل فى البنية المجتمعية ، وضربت أمثلة بما كان مشهوراً عن عرب الجزيرة من (كرم) وكيف أملته الظروف القائمة السابقة ، وأن متغيرات جديدة قد قلبت الأوضاع رأساً على عقب ، فأصبحنا نرى اتجاهات أخرى مختلفة ، مع الوضع فى الاعتبار أن التعميم فى المسائل الاجتماعية يسلم بوجود استثناءات بالضرورة .

لكن واحدا من الجالسين دفعه حماسه الزائد إلى أن يبدى أسفه أن يسمع مثل هذا الكلام لكاتب هذه السطور ، فى مثل هذا الجمع (الدينى) المسلم ، ذلك أن كلامى - هكذا قال صاحبنا - انما يردد المقولة الماركسية الشهيرة بأن الأخلاق جزء من البنية الفوقية التى تؤسسها وتحددها البنية التحتية والتى هى جملة قوى وعلاقات الانتاج .

ولقد ألهمنى الله عز وجل أن أتذكر ما أفحم هذا الزميل ، فقد ذكّرت الحاضرين بفصل صغير كتبه مفكرنا العظيم (المسلم) عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته الشهيرة، ربط فيه بين التقدم العلمى والفكرى وبين التقدم فى (العمران) ، وكيف أن مقصوده من (العمران) هو ما نقصده اليوم بالمعدلات الكلية لدرجة التقدم المجتمعى . بل إن مفكرنا لم يكتف بهذا التعميم وانما أخذ يقوم بعملية استقراء تاريخية لعدد من المجتمعات الاسلامية مؤكداً أن العلم وتقدمه إنما يكثر مع تقدم (العمران) ، وركز على القاهرة وكيف أن بحار العلم فيها زاخرة بسبب ما كانت تعيشه من درجة عالية من الثراء والتقدم الكلى، على عكس ما حدث لبغداد، بعد أن حدث لها ما حدث من هجوم وتدمير.

وقبل هذه الواقعة بنحو عشر سنوات كنت قد كتبت فى كتابى (تدريس المواد الفلسفية) عن (اجتماعيات المعرفة) ......

بل وقبل هذا ، وطوال اعدادى لرسالة الدكتوراه عن (الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لحركة الفكر التربوى في مصر فى عهد الاحتلال البريطانى من سنة (١٨٨٢ - ١٩٢٣) ، كانت القضية كلها كما يؤكد العنوان هى أن حركة الفكر تكاد أن تكون محددة بالتركيب الاجتماعى وكذلك بالتكوين الاقتصادى .

وفى كتابى (محنة التعليم فى مصر) الذى صدر عام ١٩٨٤ ، كتبت فى مقدمته :

« ..... إن مواجهة قضايا ومشكلات التعليم لا يمكن أن تتأتى فقط بتغيير المناهج والمقررات ، ولا ببناء المدارس ولا بادخال التكنولوجيا التعليمية ولا بتطوير الكتاب المدرسى .. إلى غير ذلك من (فنيات) العمل التربوى ، وإنما تكمن المواجهة الحقيقية .. هناك : فى (البيت الكبير) .. فى البنية الأساسية للمجتمع .... »

وفى كتابى (الفكر التربوى العربى الحديث) الذى صدر فى سلسلة عالم المعرفة الكويتية عام ١٩٨٧ ، وفى الخاتمة عندما بينت تخلف الفكر التربوى العربى مشيراً إلى أن ذلك إنما يسبب ما يعيشه المجتمع العربى من حالة تبعية وسوء استغلال وقهر مما يستوجب التوجه إلى صور الخلل هذه ومقاومتها ، أكملت هذا بقولى : " ان القضاء على هذه الصور، من شأنه أن يطلق طاقات المجتمع العربى نحو العمل والانتاج ومن ثم تجاوز هذا التخلف المزرى الذى ما زلنا نعيش فى كنفه ، وعندها .. عندها فقط ، نستطيع أن نأمل فى ثراء فكرى تربوى ، وبالتالى ، فى واقع تربوى تتعدد أمامه فرص التوجيه والتصحيح والتقويم والتحريك " .

وفى جريدة الشعب ، كتبت يوم افتتاح المؤتمر القومى لتطوير التعليم فى ١٤/٧ /١٩٨٧، أعلق على كثرة الحديث عن تطوير التعليم : (هموم التعليم المصرى ، ص ١٤٨) :

« .. قصة متكررة منذ عهد الخديوى سعيد حتى الآن : تتغير الشخوص ، وتتبدل المواقع وتتباين الصياغات ، وتختلف الألوان ، والمصاب هو هو .. لماذا ؟ لأننا نحاول أن نقوم الاعوجاج القائم فى شكل ، غافلين عن أن هذا الشكل إنما هو ظل لبناء آخر هو الذى به الاعوجاج ، وهو الذى يحتاج الى التقويم ، واذا عالجنا هذا الاعوجاج ، فسوف يستقيم أمر الظل بالتبعية » .

... الى غير ذلك من كتابات ..

لكن الحق يقال ، كثيرا ما كنت أجد نفسى وكأننى وصلت الى نهاية زقاق مسدود

فما دام الأمر بهذا الشكل ، فما العمل ؟

هل يقود التربويون (ثورة) لتغيير الوضع القائم حتى يمكن لهم أن يحققوا الاصلاح التربوى المنشود ؟

انهم غير مؤهلين لذلك ، ولا يقدرون عليه .

هل يجلس التربويون (على الأرائك ينظرون) الى أن يتم التغيير السياسى والاجتماعى والاقتصادى بقوى أخرى ؟

لكن كيف يتم التغيير المجتمعى بدون (كوادر) بشرية تكون قد (تربت) وأعدت بكيفية تجعل منها قوى صلبة قادرة على النضال الفعال المتواصل ؟

وهكذا كنت أجد نفسى وقد عدت الى تلك الفزورة الشهيرة :

الدجاجة أولا أم البيضة ؟ !!

ومنذ عامين على وجه التقريب عرض د. عبد السميع سيد أحمد على سمنار قسم أصول التربية بتربية عين شمس لآراء جديدة تذهب الى أن التربويين انما يصارعون طواحين الهواء عندما يقصرون تحليلاتهم على مستوى الظاهرات الاجتماعية الكبيرة والتى لايملكون أمرها ، وأن الأولى بهم أن يتجهوا الى الظاهرة التربوية كواقع فى مجتمع صغير مثل (المدرسه) و (الفصل).

كان هذا التوجه يحاول الخلاص من المأزق الذى أشرت اليه .

ثم كان أن جاء د. حسن البيلاوى لنا بهذه الدراسة الحالية المعنونة بـ (نحو اثنوجرافيا نقدية. فى اجتماع المدرسة : دراسة فى المدخل الكيفى) ، فاذا بطاقة الأمل تفتح من جديد.

لا أريد أن أشرح ماذا يقصد بالاثنوجرافيا النقدية ، وماذا يقصد بالمدخل الكيفى، ومبررات هذا وذاك ، وكيف تطور الأمر الى هذا ، وما معالم ما يسمى بعلم اجتماع المدرسة ، فهذا كله مبسوط فى صفحات الدراسة كلها ، وخاصة المقدمة ، التى أجاد باحثنا المتميز عرض فكرة الدراسة عامة ، فيها .

لكن ما أود أن أنوه به هو هذه الفكرة المحورية التى يؤكد من خلالها باحثنا على أن الاثنوجرافيا النقدية تسعى الى الفهم العميق للواقع من خلال دراسة خبرة الحياة اليومية الحية داخل المدرسة وتفسيرها تأويليا فى اطار السياق الاجتماعى الذى تنشأ فيه الخبرة وتتفاعل .. اثنوجرافيا قادرة على تقديم الثقافة المصغرة .. ثقافة المدرسة ، والتى هى ، امتداد لثقافة المجتمع وتحديد لها فى نفس الوقت .

.. وهكذا نستبين الطريق ..

فاذا كان التغيير الشامل فى المجتمع الكبير (حلما) مرغوبا ، فان هذا لايعنى أن نترك فرصة (الواقع) الصغير فى بيتنا المحلى المهنى يفلت من بين أيدينا ، أو يستمر على ماهو عليه انتظارا لتحقق الحلم ، فهناك عدد لا بأس به من (مساحات) معاهد التعليم ومؤسساته ، يخضع ، الى حد لابأس به ، لارادتنا ، نستطيع أن نقوم أمره .

ان ذلك – ان صحت المقارنة – تصديق للحكمة النبوية : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . ففى كل موقع يجد الانسان نفسه مسئولا عنه ، لابد أن يقوم بفعل الاصلاح والتغييروالتقويم.

ليست المسألة ، مرة أخرى ، هى عملية اختيار وفق منطق (اما .. أو) اما الظاهرة الاجتماعية الكبيرة أو الظاهرة المدرسية الصغيرة ، وإنما هى : امساك بالممكن ، مع تطلع الى المأمول ، فى حركة نضال فعالة تتواصل بتواصل أنفاسنا اذا ظلت تردد معلنة اننا احياء !!

هذا عن الموضوع ... فماذا عن الكاتب ؟

لقد كان الدكتور حسن هو أول من افتتح سلسلة (قضايا تربوية) بكتابه الرائع : الاصلاح التربوى فى العالم الثالث .

ولقد قدم الدراسة الحالية على أساس أن تنشر فى مجلة (دراسات تربوية) على جزئين نظرا لطولها بالنسبة للمجلة ، فلما قرأت هذه الدراسة ، لا أبالغ اذا قلت أننى (ذهلت) بها ، وأحسست أننى أكاد أغادر مقعد (الأستاذية) بالنسبة لحسن لأبوأه هو مقعد (الأستاذية) ، وأجلس أنا على مقعد (المتعلم) .. فهذه الدراسة من الدراسات التربوية العربية النادرة التى شعرت أنها أضافت لى مالم أكن أعلم .

اننى بحكم موقعى كمنظم لعدد من المؤتمرات ، ومحررا للكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، ورئيسا لتحرير مجلة (دراسات تربوية) ، وعضوا فى اللجان العلمية للترقية ، تمر على مئات البحوث والدراسات ، فاذا بى أجد الكم الأكبر منها يدور حول موضوعات تقليدية ، وأشعر وأنا أقرؤها اننى سبق أن قرأت نفس الأفكار من قبل ، ولولا رحمة الله لداخلنى غرورقاتل بأننى لابد وأن أكون عالما كبيرا الى الدرجة التى لا أجد فيها جديدا فيما يكتب . لكن ، حمدا لله ، فانى متيقن بالحقيقة الالهية (وما أتيتم من العلم الا قليلا) ، وبالتالى فالقصور ، قصور فى حركة البحث التربوى ، .. الى أن قرأت دراسة حسن ..

لقد ذكر بعضٌ أنه مجرد ناقل ، يردد آراء آخرين . وأقول لهؤلاء : ان باحثنا

الرائع يشكل لنا (حبلا سريا) يصلنا برحم العلم التربوى المعاصر ، ليغذينا بأحدث الأفكار وأكثرها جدة وجدية . وهو يضيف الكثير من عنده ، من تحليلات ، واستنباطات ، ورؤى ، حتى يشكل لنا ما ينقله ، قوى مجددة للعقل التربوى العربى .

ولقد ذكر بعض آخر ، أنه يكرر نفسه فيما يكتب . وأقول لهؤلاء : أنتم تخلطون بين العلم (كمنهج) وبينه (كنسق معرفى) . ان (النقدية) هى منهج أكثر منها نسقا معرفيا ، وبالتالى ، فلابد وأن يتكرر المنهج فى كل كتابات باحثنا المتعمق . بل ان هذا التكرار دليل اتساق منطقى ، ووحدة فى الشخصية العلمية ، وانسجام فكرى .

ولأن هذه الدراسة متميزة وجديدة وتشق بالفعل طريقا جديدا للبحث التربوى ، وطويلة بالنسبة لـ (دراسات تربوية) ، رأيت أن تنشر فى عدد جديد من سلسلة (قضايا تربوية) .

اننى أجد نفسى محظوظا حقا لأن أجد بين تلاميذى وأصدقائى وزملائى واحدا مثل د. حسن البيلاوى .

ولاشك أن القارئ لهذه الدراسة ، سيشعر بنفس شعورى ، بأنه محظوظ حقا أن قد أتيحت له هذه الفرصة الثمينة التى جعلته يقرأ ما يمكن أن يشكل (علامة) على طريق البحث التربوى.